العامل الجغرافى وأثره فى نشأة المدن

فى افغانستان

للدكتورة عطيات عبد القادر حمدى
أستاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب

يلعب العامل الجغرافى الطبيعى أو البشرى دوراً كبيراً فى نشأة كثير من مدن أفغانستان بل مدن وسط آسيا . فالمشاهد أن السلاسل الجبلية فى وسط القارة تمتد بوجه عام من الشرق إلى الغرب ابتداء من غرب الصين (جبال تسلنج شان) حتى القوقاز وهذه السلاسل الجبلية عبارة عن عدة مجموعات من سلاسل متوازية تمتد كل منها وراء الأخرى . وكاد هذا الامتداد العظيم للجبال أن يعيق اتصال جنوب آسيا بشمالها لولا وجود عدة عوامل جغرافية كان لها الفضل الأكبر فى عقد الصلات الدائمة فيما وراء تلك السلاسل .

وان امتداد الجبال من الشرق إلى الغرب نفسه قد افرض على الطرق أن تسير هى الأخرى فى نفس الاتجاه وبلغت أهمية هذا الاتصال مبلغاً عظيما حينما كانت تلك الصلات بين شرق آسيا وغربها على أشدها ، وكانت صلات اغارة وغزو ، أو هجرات جنسية وثقافية ، أو صلات تجارة وتبادل .

وقد كانت تلك الصلات تجتمع فى نقط حساسة هامة عندما تدور الطرق فى بعض الأجزاء لتتجه إلى الجنوب نحو البلاد الموسمية الوافرة الخيرات . وعندما تعبر تلك الطرق وتتخطى السلاسل الجبلية العالية فانها تصل فى الجانب الآخر إلى المحطات الجبلية والمدن التجارية التى كان لها هى الأخرى شأوا عظيما .

وشاء الموقع الجغرافى لأفغانستان أن يجعلها فى مركز متوسط تتجمع عندها الطرق السائرة من الشرق إلى الغرب وتلك العابرة من الشمال إلى الجنوب . وبذلك أصبح يتجمع عندها عدد من الطرق أدت إلى نشأة المدن وازدهارها على مر العصور وأبرز موقع هذه المدن أهمية العامل الجغرافى

فى خلق المراكز العمرانية فى مناطق الجبال . وأصبحت هذه المراكز العمرانية فى بعض عصور التاريخ عواصم لأقاليم كانت مفاخر للشرق .

ولم يكن العامل الطبيعى هو المؤثر الوحيد فى حياة هذه المدن بل نجد أن العامل البشرى أيضاً كان له دوره فى تخطيط حياة تلك المدن . ذلك أن سهولة العبور والاتصال عبر المناطق الجبلية القاحلة جعل مراكز العمران هذه واحات غنية بالنسبة للاقليم وتجمعت عندها المتاجر من الشرق والغرب والشمال والجنوب فصارت مطمعاً للغزاة وتعرضت لكثير من الاغارات والغزوات وكثيراً ما مرت عليها عصور انهارت فيها وتدهورت وأصبحت ركاماً من الخرائب المهجورة الا أن العامل الجغرافى كان ضرورة ملحة فى اعادة نشأة المدن فى تلك المواضع ، فكانت الاسرات الحاكمة — التى توالت على هذه الاقاليم — تستفيد من الموقع الجغرافى وتحاول اعادة ما خربته الحرب فتبنى كل أسرة عاصمة جديدة لها وتفتخر بها وأصبح كل حاكم « يحلم ببناء مدينة جديدة فى مناطق العبور هذه كما يحلم رئيس القبيلة ببناء منزل جديد» (١) .

فالاسكندر الأكبر قام ببناء بعض المدن فى تلك المناطق ويقول ابن خرداذبة ان الاسكندر «سار إلى أرض بخارا فبنى بخارا ثم سار إلى أرض مرو فبنى مدينتها وبنى مدينتى هراة وزرنج وخرج على جرجان وأمر ببناء الرى وأصبهان وهمدان حتى عاد إلى أرض بابل .. الخ » (٢) وهذا الكلام ان دل على شىء فانما يدل على أن الاسكندر أدرك أهمية هذه المناطق مناطق العبور فبنى بها المدن لتخلد ذكراه وتكون مراكز للصلات التجارية .

---

(١) Blanchard (R.) Asie Occidentale, Geogr. Univers. (Pière patie) T. VIII, Paris 1929, P. 158.

(٢) ابن خرداذبة (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله) المسالك والممالك طبعة ليدن (بريل ١٣٠٩ هـ) ص ٢٦٥ .

وعلى العموم فمن الممكن أن نسمى هذه المدن «مدن الواحات» لما حققته من غنى وثروات كبيرة ومنها نجد : سمنان ودمجان وسبزوار وشهرود على الجانب الايرانى كما نجد ميمنة وبلخ وطاشكورغان وكندوز على الجانب الأفغانى وكلها واحات نشأت على مناطق العبور . وقد أقام بها الحكام زراعة القطن والفاكهة وصناعة الصوف واستغلال مناجم الزمرد وغيرها وكانت مدينة نيسابور (١) مثلا رائعاً لهذا الصراع الدائم بين عوامل البيئة الطبيعية والبشرية بين ازدهار فى بعض العصور وانهيار وتدهور فى عصور أخرى .

وهكذا نجد أن نشأة المدن فى هذه المناطق كانت نتيجة لالتقاء الجبل بالصحراء وقد تحكمت تلك الظروف فى حياة المدن لدرجة اننا أصبحنا نجد أنها تكثر من حيث العدد والحجم فى المناطق الشمالية ، ويقل عددها وأهميتها كلما توغلنا جنوباً حيث أقاليم الصحراء ، كما أصبح حلول فصل الشتاء وتوفيره للرطوبة بتلك الأقاليم مورد رزق وحياة وانتعاش فى هذه الأرجاء فينشط الاتصال بين الشمال والجنوب ، ولو على حافة الصحراء فتقوم الطرق بين اصفهان وسمنان من ناحية ، ونرد ودمجان ومشهد من ناحية أخرى ، وكيرمان ومدن خراسان من ناحية ثالثة .

أما فى فصل الصيف وعند حلول الجفاف فتنقطع الطرق من الشمال إلى الجنوب وتقتصر حركة المواصلات على الدروب التى تسير فى حمى المنحدرات الصخرية والسلاسل الجبلية .

وليس من شك فى أن هذه الظروف الجغرافية قد أدت إلى تشكيل حياة السكان فقامت قبائل برمتها تقود الجمال وتعمل على الطرق التجارية

---

(١) بنى هذه المدينة واعاد بناءها الساسانيون والعرب ومحمود الغزنوى والسلاجقة وكانت الغزوات والحروب تؤدى دائما إلى انهيارها وكان بها حوالى ١٢ منجم من مناجم الأحجار الكريمة والنحاس والحديد والانتيمونى والملح والرخام . وكان بالواحة مئات القرى ومئات القنوات الباطنية ولم تعد فى الوقت الحاضر سوى محلة تزرع بها بعض الحبوب والأرز والطباق .

كحمالين (١) . ولذلك أصبحت أهم وظيفة للسكان هى الوساطة التجارية كما اتخذت المدن الجنوبية من الاقليم وظيفة جديدة إذ أصبحت ملاجىء ضد قطاع الطرق الموجودين فى الجنوب وفى اقليم فارس قرب الخليج العربى وضد بلوخ ساحل مكران وكثير من قبائل الياغيز yaghis أو الخارجين على القانون فى اقليم سرحد عند بامبور .

ولقد اطلقت الكتب العربية اسم خراسان على منطقة العبور هذه ، واعتبرتها منطقة اتصال نحو الشمال إلى البلاد الداخلة فى وسط آسيا أى اقليم ما وراء النهر ، ونحو الجنوب إلى الأقاليم الصحراوية والشبه صحراوية ، ونحو الشرق إلى حوض السند ، ونحو الغرب إلى قزوين والخليج العربى .

وقال الاصطخرى (٢) ان أهم مدن خراسان وأعظمها «هى نيسابور ومرو ، وهرات وبلخ» ومنها أيضاً «كور قوهستان وطوس ونسا وابيورد وسرخس .. والباميان وطخارستان وزم وآمل» . وجاء فى كتاب صورة الأرض (٣) ان «خراسان تشتمل على كور عظام وأعمال جسام . . والذى يحيط به من شرقيه فنواحى سجستان وبلد الهند لأنى ضممت إلى سجستان ما يتصل بها من ظهر الغور كله إلى الهند وجعلت ديار الخلج فى حدود كابل ووخان على ظهر الختل كله وغير ذلك من نواحى بلد الهند وغربيها مغازة الغزية ونواحى جرجان وشماليها بلد ما وراء النهرو شىء من بلد الترك يسير على ظهر الختل وجنوبيها مقازة فارس وقومس إلى نواحى جبال الديلم مع جرجان وطبرستان والرى وما يتصل بها وجعلت ذلك كله اقليما واحداً» .

---

(١) مثل قبيلة آناراك : فهى تملك حوالى ٥٠٠٠ جمل وتقوم بحركة النقل بين اصفهان ويزد ومشهد بل إلى بخارى .

(٢) الاصطخرى (ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى) المعروف بالكرخى – مسالك الممالك طبعة ليدن بمطبعة بريل ١٩٢٧ ص ٢٥٣ .

(٣) ابن حوقل (ابو القاسم بن حوقل النصيبى) صورة الأرض الطبعة الثانية القسم الثانى طبعة ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٩ ص ٤٢٧ .

ونخلص من هذه المقدمة بأن العوامل الجغرافية الطبيعية قد تكاتفت مع العوامل البشرية من أجل خلق مراكز عمرانية عند مناطق عبور السلاسل الجبلية الاسيوية الممتدة من الشرق إلى الغرب حيثما أراد هذا العبور اختراق تلك السلاسل من الشمال إلى الجنوب ووجدنا مدناً رئيسية تنشأ فى تلك الأقاليم من وسط آسيا وتتخذ لها مكانة حضارية أساسية أمثال كشغر ويرقند (تجمع طرق تاريم) وطشقند وسمرقند وبخارى ومرو (تجمع طرق زنجاريا وتاريم) على الجانب الشمالى للسلاسل الجبلية ثم مشهد ونيسابور وبلخ وهراة وقندهار وكابل على الجانب الجنوبى لتلك السلاسل ، ولم تكن تلك المدن سوى مثل فقط وانما يوجد غيرها كثير .

وفى هذا البحث سنخص بالدراسة التفصيلية ثلاث مدن رئيسية تأثرت حياتها كثيراً بمنطقة العبور فى جبال هندكوش وكانت تشكل اثناء تسطير تاريخها تشكل تاريخ افغانستان نفسه وتؤثر ليس فقط فى دولتها وانما بتأثرها بعيداً نحو حوض الهند من ناحية واقليم ما وراء النهر أى اقليم طوران من ناحية أخرى وهى مدن هرات — قندهار — كابل وسنستنتج فى اثناء البحث أثر العامل الجغرافى الذى كان دائماً يلعب دوراً أساسياً فى تكوين تلك المدن وفى اتصالها بالمناطق المجاورة .

العوامل الطبيعية ذات الأثر فى نشأة المدن الثلاث :

تعتبر جبال هندكوش (١) العمود الفقرى للتضاريس فى منطقة الدراسة . فهى تمتد من هضبة بامير نحو الجنوب الغربى لمسافة ٨٠٠كم. م وتعتبر خط تقسيم مياه بين حوض نهر كابل وحوض نهر أمودريا . ومن الممكن أن نقول انها تمتد من منطقة تاغ دمباش بامير وتتجه نحو الغرب حتى سلسلة كوه — أى — بابا . وترتفع تلك السلاسل الجبلية تدريجياً ابتداء من منابع نهر فرغ آب وهرى رود كما يزداد تكاثفها . وهى تكون

(١) هندكوش معناها قاتل الهنود . وكان العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلادالهند كان يموت اكثرهم هناك لشدة البرد (عن : ابن بطوطة طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ٣٦٠).

بين نهر امودريا وهلمند كتلة عظيمة «كوهستان» وتكون حداً طبيعياً وجبهة تتكاثف عندها بعض السحب التى قد تأتى من الغرب . وفى شرق ممر باميان Bamian نجد أن هذه السلسلة تشبه الهضبة وتقع عليها بعض البحيرات ولكنها كلما اتجهت نحو الغرب ازداد ارتفاعها ووضح شكل السلسلة الجبلية . وفى اقصى الاجزاء الشرقية لهندكوش نجد ممر فاخجير الذى يخترق منطقة داغ دمباش بامير الجبلية نحو أعالى نهر هنزا . وهو بذلك يكون الحد الشرقى الأقصى لجبال هندكوش . وتشرف هندكوش فى هذا الجزء على نهر امودريا بحافتها الشمالية تاركة بينه وبينها جزءاً مستوياً يصل عرضه حوالى ١٦ ك متراً ويمتد فوق هندكوش فى هذه المنطقة اقليم واخان الافغانى . وهو عبارة عن شريط ضيق من الأرض يحده من الشمال نهر امودريا ومن الجنوب قمم هندكوش .

وفى الأجزاء الشرقية لهندكوش نجد أيضاً عدة ممرات تختلف فى ارتفاعها فيما بين ٣٨٠٠ متر ، ٥٣٠٠ متر وأسهل هذه الممرات وأقلها ارتفاعاً هو ممر باروجيل (١) الذى يصل بين آسيا العليا وشترال .

وكلما اتجهت هندكوش نحو الجنوب الغربى كلما ازداد ارتفاعها وظهرت بها بعض القمم التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ٧٣٠٠ متر وتوجد هذه القمم فى الأجزاء الجنوبية من هندكوش فى جبال تيراش مير الشاهقة الارتفاع والتى تشرف بسفوحها الجنوبية على اقليم شترال . وتعتبر سلسلة كوه — اى — بابا السلسلة الرئيسية فى هندكوش وتخرج منها سلاسل سياه — كوه وصفيدكوه وترتفع بها قمة «الشيطان» إلى ٥١٤٠ متراً وقد تصل بعض القمم إلى ٥٥٠٠ متر بينما متوسط الارتفاع يصل إلى ٤٥٠٠ متر . وعند اقدام السفوح الشمالية تظهر مدن تركستان الأفغانية وهذه السلاسل يصيبها بعض الأمطار وتتجمع الثلوج فوقها شتاء وبخاصة على القمم العالية .

وتعتبر هذه الاجزاء الشرقية من هندكوش هى هندكوش الحقيقية

---

(١) يصل ارتفاعه إلى ٣٦٦٠ متراً
Blanchard (R.) Geogr. Univers. T. 8. P. 144.

الوعرة حيث تتمثل فيها كثير من المظاهر الطبيعية وبخاصة فى شرق ممر بأميان . فالسلاسل تشغل حيزاً عريضاً من الاقليم والممرات وعرة وهى تكاد تشبه جبال هيمالايا من حيث شدة الارتفاع . ويزداد الارتفاع فى كتلة تيراك مير Ṭirak Mir (حيث يصل الارتفاع إلى ٧٧٥٠ متراً) وهى تتصل فى أقصى الشرق بهضبة بامير . والأودية هنا شديدة الارتفاع لدرجة أن الناظر منها إلى الجبال يخيل اليه أن الارتفاع بسيط(١) .

وتمتاز كل السلاسل الواقعة جنوب بامير بالمظاهر الجافة وتشارك بامير فى ذلك السلسلة الوسطى من هندكوش ولكن السلسلة الشمالية أكثر تمتعاً بالرطوبة حيث نجد حتى ارتفاع ٣٥٠٠ متر بعض المراعى الألبية وفى السفوح السفلى يزرع بعض الشعير . ولكن السفوح المنحدرة نحو الجنوب نحو حوض كابل أكثر غنى من حيث الرطوبة إذ من الممكن أن يصلها بعض الأمطار الموسمية وقد تهيأت بذلك الفرصة لقيام زراعة المدرجات فى جوانب الأودية .

ويقع اقليم نورستان (٢) فى غرب نهر شترال (٣) وفيه نجد أن الأودية غنية ومهيأة لزراعة الفاكهة كالجوز والتوت والمشمش والتفاح وتغطى سفوحها أشجار الصنوبر والكروم البرية والرمان البرى والبلوط الدائم الخضرة ، ولا يتوقف نمو النبات الا على ارتفاع ٣٩٠٠ متر . وهذا الاقليم أيضاً اقليم وعر شديد الارتفاع (متوسط الارتفاع ٤٥٠٠ متر) .

وقد قطعت الوديان اقليم نورستان إلى مناطق كبيرة منعزلة عن بعضها البعض وهذه الوديان النهرية ضيقة وكثير منها خوانق تمتد من الشمال إلى

---

(١) لايكاد يرى المسافر فرقا فى الارتفاع بين خانق باروجيل (٣٦٦٠ متراً) ووادى واخان عند سرحد سوى ٤٦٠ متراً .

(٢) كان يسمى قديماً اقليم كافرستان وبعد دخول الاسلام هناك سمى اقليم نورستان .

(٣) يسمى هذا الوادى باسم شترال فى باكستان اما جزؤه الواقع فى افغانستان فيسمى نهر كونار وهو ينبع من شمال اقليم شترال ويصب فى نهر كابل شرق جلال أباد .

الجنوب وتنحدر نحو وادى نهر كابل عند جلال اباد . وقد تصنع الوديان ممرات إلى قلب اقليم نورستان ويمكن بها اختراق جزء آخر من هندكوش وأهم هذه الممرات ماندال وكاماه وكولان ورامجال وكلها تؤدى إلى اقليم بدخشان وإلى وادى منجن فى بدخشان ويصل متوسط ارتفاع هذه الممرات فى الغالب إلى حوالى ٤٥٠٠ متر .

وإلى شرق اقليم نورستان نجد اقليم شترال الباكستانى وتصلهما بعضهما ببعض ممرات هامة ورئيسية نظراً لأنها تعتبر أقل ارتفاعاً (يتراوح الارتفاع فيما بين ٣٦٠٠ ، ٤٢٠٠ متر) ومنها مجموعة «درة Durah Pass (١) وهى ترتفع إلى حوالى ٤٥٠٠ متر وتعتبر طريقاً للاتصال بين أحواض امودار يا وشترال . وإلى جنوب غرب ممر درة فى اقليم نورستان نجد ممر خوك ويتراوح ارتفاعه فيما بين ٣٣٠٠ متر ، ٣٦٠٠ متر . وقد يصل الارتفاع إلى ٢٥٠٠ متر فى ممر باتكون وهو يخترق أحد النتوءات الجبلية المنخفضة بالقرب من نهر كونار . كذلك هناك ممر شيبار (٢٧٠٠ متر) وهو يؤدى إلى أعالى غورباند وإلى مجموعة الممرات الواقعة بين باميان وسهل كابل مثل ممر العراق وحاج جاك وأوناى وغيرها .

وفى غرب باميان يبدأ الجزء الغربى من هندكوش على شكل سلاسل متفرقة فى شكل مروحة وتتجه السلاسل الشمالية منها نحو الغرب لتتصل بسلاسل شمال ايران الممتدة فى جنوب شرق بحر قزوين باسم سلاسل كوبت داغ . وتتفرع من هندكوش كذلك سلسلة كوة أى بابا نحو الغرب ومنها تخرج سلاسل رئيسية مثل باروباينساد وبوشت أى كوه وبينالود وينحدر هندكوش نحو الجنوب حتى اقليم سفستان (احدى سلاسل سليمان) كما تنحدر نحو الجنوب الغربى والغرب حتى تتلاشى فى صحراء افغانستان حيث توجد سنجة لوراهامون .

---

(١) توجد هذه الممرات على الحدود بين شترال ونورستان عند نهاية الطرف الجنوبى الغربى لاقليم واخان .

الوديان النهرية : لم تكن الممرات وحدها سبلا للاتصال فى هذا الاقليم الوعر الذى تسير فيه هندكوش ، ولكن الأودية النهرية سهلت الكثير من الاتصال وصنعت طرقاً رئيسية وهامة أدت إلى نشأة كثير من مراكز العمران .

ومن النظرة العامة للخريطة فى تلك المنطقة من آسيا نجد أن الملامح العامة للتضاريس فى اقليم هندكوش تتلخص فى وجود كتلة من الجبال العالية فى الشمال الشرقى ثم سلسلتين من الجبال تكادان تمتدان بموازاة بعضهما البعض وتحصر هذه السلاسل فيما بينها صحراوات واسعة تصعب فيها الحياة خاصة وانها أصبحت والحال هذه محاطة من كل جانب بالجبال مما جعل مناخها شديد القسوة واستغلالها الاقتصادى صعباً .

ولكن الطبيعة السخية دائماً أوجدت مناطق التقاء سميت فى بعض الكتب مناطق عقبة . وهى هنا توجد حيثما يلتقى الجبل بالصحراء أو بوادى نهر أو حيثما يعبر سلسلة الجبال ممر جبلى مرتفع أو منخفض . ففى هذه المناطق بنى الانسان مدنه ، واستفاد الانسان بانحدار السيول على الجبال أو بحفر الآبار لكى يقيم أود حياته فى تلك المناطق. وبذلك اجتمع العامل البشرى والطبيعة لخلق مراكز عمران حول السلاسل الجبلية أو بمعنى أدق حول سلسلة جبال هندكوش وعند مواضع استراتيجية هامة — وأصبحت هذه المراكز نقطاً ترتكز عليها طرق التجارة والمواصلات فى الاقليم .

وإذا تأملنا جبال هندكوش نجد أن بعض الأمطار القليلة قد ساعدت أثناء انحدارها على سفوحها الشمالية لتصل إلى وادى نهر امودريا قد ساعدت على نشأة بعض الوديان التى يجرى الماء فى بعضها لفترة من السنة ولا يستطيع الكثير منها أن يصل ليصب فى ذلك النهر .

وأهم هذه المسيلات (وليس الانهار) مسيل كندوز وهو يسير شمالا ويصب فى نهر امودريا عند مدينة كندوز ثم سيل خلم (١) وهو يصب

(١) يسمى سيل خلم أحياناً باسم قناة خلم لصغره .

فى الأرض الخلاء عند مدينة طاشكورغان الواقعة شرق مزار شريف . ويعتبر هذا الوادى نقطة التقاء كثير من الطرق البرية الآتية من الهند وايران ووسط آسيا .

وفى هذه المنطقة أيضاً نجد بقايا ولاية بكتريا أو بلخ كما نجد مدناً أخرى نشأت أيضاً عند نقط الالتقاء بين الجبل والسهل مثل مزار شريف وشبرغان واندخوى وميمنة .

وينحدر فى هذا الاتجاه أيضاً نحو الشمال نهر مرغ آب وهو أهم النهيرات جميعاً فى هذه المنطقة وهو ينبع من جبال صفيدكوه بالقرب من هرات ثم ينحدر شمالا حتى مرو .

كذلك ينحدر من الجزء الغربى من هندكوش نهر هرى رود وهو ينبع من غرب هندكوش بواسطة رافدين يلتقيان غرب مدينة أوبى ثم يسيران معاً حتى مدينة هرات ويتجه هرى رود شمالا بموازاة نهر مرغ آب فيمر بمدينة بول — اى — خاتون ثم يتجه شمالا ليصب فى الأرض الخلاء غرب مدينة مرو . ويقول هولدتش انه إلى غرب طريق هرى رود هذا لا يعرف أى طريق للصلة حتى نصل إلى مزار شريف . فانه بين مزار شريف وكوشك لا يوجد أى طريق لعبور هذه الكتلة الشاهقة من المرتفعات بينما عند مزار شريف يوجد طريق يسير حتى كابل ولكن هذا الطريق يستخدم فقط للتجارة وليست له قيمة عسكرية (١) .

هذه أهم الروافد المائية التى تنحدر من هندكوش نحو الشمال الا أنه فى الجزء الشرقى من هندكوش نجد أيضاً بعض الروافد النهرية تتجه من الشمال لتصب فى نهر كابل أهمها نهر كونار وهو ينبع من جبال شترال ويسير مخترقاً الحدود بين باكستان وافغانستان ليصب عند جلال أباد على نهر كابل . وهناك أيضاً نهر بانج شير وهو ينبع بالقرب من ممر خوك ويصب فى غرب جلال أباد .

---

(١) Holdich (Sir T.H.) India, London بدون تاريخ P. 62

أما الأنهار التى تنحدر نحو الجنوب والجنوب الغربى وصنعت ممرات هامة فى الاقليم الجبلى من أفغانستان فأهمها : نهر هلمند الذى ينحدر مع روافده نحو الجنوب الغربى حتى اقليم سجستان ونشأت فى واديه مدينة قندهار وقلعة اى غيلزى ونشأت على طريق الاتصال بينه وبين هندكوش مدينة غزنة وجرديز .

وتنحدر نحو الشرق من هندكوش أهم مجموعة نهرية فى أفغانستان وهى مجموعة نهر كابل وروافده . وجاءت أهمية هذا النهر فى أنه يصل إلى أغنى بقاع الهند وأهم مواطن الثروة فيها . ويخترق وادى هذا النهر الحدود السياسية بين باكستان وأفغانستان فى شرق قرية دكا Dakka .

ويبدأ هذا النهر بالقرب من ممر أونای ويسير فوق عدة مدرجات وأهم المراكز العمرانية فى هذا الوادى هى : مدينة كابل وجلال أباد ويبدأ نهر كابل بالقرب من باميان ثم يتجه نحو الشرق حتى مدينة كابل وإلى شرقها يتصل به رافده لوجار الذى يأتى من الجنوب ويسير النهر نحو الشرق فيتصل به من الشمال رافده بانج شير ويسيران معاً حتى جلال أباد وإلى شرق جلال أباد يصبح النهر سريع الجريان ويخترق الجبال على شكل خانق ثم يعبر الحدود السياسية ويصل إلى حوض تشاور ومنه يتصل بنهر السند عند مدينة الأتك Attok .

وبذلك صار هذا النهر مهما لأنه أدى إلى اتصال الأحواض الداخلية من هندكوش وبالأخص حوض كابل بحوض السند . ولم يكن النهر وحده وسيلة الاتصال وانما ساعدته فى هذا الاتجاه كثير من الممرات الجبلية التى كانت كلها تصب وتلتقى عند النهر . ففى شماله نجد ممر أونای ولاتا بند وممر كونار ، ومن الجنوب ممرات جكدلك وخيبر فى باكستان ويساعد هذه الممرات ممرات أبعد شقة ولكنها توصل إلى حوض كابل أيضاً أهمها ممر نيل وآق رباط وشيبار من ناحية الغرب وممرات خوك وما ندال وباروجيل إلى الشرق .

ومن هذه الدراسة يتبين لنا أن هندكوش كتلة جبلية وعرة ومن الممكن أن تصبح مكاناً حصيناً للالتجاء اليه فهى تخفى بين أحضان ثناياها ووديانها مجموعات جنسية مثل جالتشا Galtchas وهى عناصر شقراء سكنت اقليم بنج Pendj وهم من أصل آرى . كذلك سكنت بها عناصر ايرانية وهندية و تركية ومغولية وهى كلها قد انعزلت فى هندكوش . أما «الكفار» فقد انعزلوا فى اقليم نورستان وهم من أصل يونانى (١) . وهم ذوى بشرة بيضاء وشعر أشقر ويدينون بديانة مختلطة وغريبة تختلف عن حولهم .

وبالرغم من ذلك فقد أوجدت الطبيعة سبلا لاختراق هذه الكتلة من السلاسل عن طريق تلك الممرات والأودية النهرية التى ذكرناها . وأصبحت لهندكوش طرقها التى تقذف منها العناصر والجيوش والبضائع فكما كانت هندكوش ملجأ للعناصر فهى أيضاً مركز للطرد نحو شبه القارة الهندية .

مراكز العمران والتقاء الطرق :

مهمنا من تلك الطرق ، الطرق الرئيسية التى كانت سبباً فى خلق مراكز هامة للعمران . ولقد ذكرنا فيما تقدم أن الطرق تدور حول هندكوش وتسير فى شمالها وفى غربها وفى جنوبها بينما يخترقها الطريق الرئيسى وهو طريق حوض كابل نحو الشرق إلى حوض السند . وكانت هذه الطرق تسير لتتفادى السلاسل الجبلية الوعرة وتسير مع سفوحها الجنوبية .

وبذلك خرجنا بنتيجة هى : أن هذه الطرق استدعت قيام مراكز العمران وأن مراكز العمران خلقت لتخدم تلك الطرق وكان معظمها ذو أهمية استراتيجية واقتصادية كبيرة . وكان أهم مواضع المدن التى نشأت على تلك الطرق هو حيث يلتقى مجرى مائى بالطريق فيمهد لتموين المدينة بالمياه اللازمة . ووجدنا حول هندكوش طريقاً يسير فى اقليم بدخشان

(١) من بقايا غزوة الاسكندر ودولة بكتريا .

وتركستان الافغانية موازياً لوادى نهر امودارياوتقع عليه مدن كثيرة مثل كندوز وخلم ومزار شريف وبلخ واكشا وشيبرغان واندخوى . وبعد ذلك يدور الطريق ميمنة إلى وادى مرغ آب ومن هناك يصبح من السهل الاتصال عن طريق هذا الوادى بمدينة مرو فى تركستان الروسية ثم يسير الطريق مع وادى نهرهرى رود ليصل إلى مدينة هرات وعند هرات يدور الطريق حول هندكوش أيضاً إلى سيزوار ثم إلى فره ثم إلى جريشك على نهر هلمند ومنها إلى قندهار . ومن قندهار يسير الطريق نحو الشمال الشرقى إلى قلعة إى غيلزى إلى غزنة إلى كابل . وبذلك يكون قد تفادى هندكوش ودار حولها وبذلك أيضاً يكون قد استدعى قيام مراكز عمران ذات أهمية استراتيجية بالغة .

ووجدنا من هرات طريق يسير نحو الشرق إلى كابل وهو أيضاً طريق رئيسى ويخترق وادى نهر هرى رود ويصل إلى ممر باميان وأوناى حتى كابل .

وبذلك أصبحت هرات مدينة هامة لالتقاء الطرق فى اقليم وعر صعب الاختراق فهى تستطيع الاتصال بحوض كابل فى الشرق وبوسط آسيا عن طريق وادى هرى رود وتركستان إلى الشمال وتستطيع الاتصال بقندهار فى الجنوب بالدوران حول هندكوش (١) .

أما قندهار فقد أصبحت ملتقى أيضاً للطرق الآتية من هرات فى الشمال ومن كابل وغزنه فى الشمال الشرقى (٢) وهى كذلك قريبة الصلة من ناحية أخرى بممر بولان فى الجنوب الشرقى .

أما كابل فقد أصبحت هى الأخرى ملتقى للطرق الآتية من الشرق عن طريق ممر خيبر والآتية من الشمال الشرقى عن طريق ممر باروجيل الواصل

---

(١) طول طريق هرات قندهار ٢٨٠ ميلا (٤٤٨ ك مترا) .

(٢) طول طريق كابل – قندهار ٢٨٠ ميلا (٤٤٨ ك متراً) .

إلى هضاب وسلاسل شترال وواخان وبامير والتبت . وتلك الطرق التي تأتي من الغرب من هرات (١) وما وراءها من سهول وهضاب وسط آسيا .

ولذلك كانت هذه المدن الثلاث كابل — هرات — قندهار مدناً رئيسية في خريطة افغانستان وفي خريطة هندكوش بنوع خاص .

هذا هو العامل الطبيعي الذي أدى إلى نشأة مراكز العمران وإلى ايجاد الضرورة الملحة لوجودها حيث هي . فكيف نجد العامل البشري وكيف قام بدوره هو الآخر في تلك الأقاليم ؟

كثيراً ما يكون العامل البشري نتيجة للعامل الطبيعي وبخاصة حينما تكون الطبيعة قاسية . فحينما يبدأ الانسان في استغلال البيئة الطبيعية نجدها تتحكم فيه تحكماً توجيهياً على الأقل. لذلك ففي حالة مدننا الثلاث هرات — قندهار كابل — ذلك المثلث الشهير من أرض أفغانستان — نجد أن الطبيعة الحت لايجاد هذه المدن في تلك المواضع وأوعزت للانسان بايصال الطرق إليها . وسنرى عند تحليل حياة كل من هذه المدن أن الانسان استطاع عن طريق الاستفادة بهذا الموقع الجغرافي بالموضع الذي هيأته الطبيعة للمدن أن يسير بها سيراً حسناً وأن ترث من الغنى والثروة الشيء الكثير . ولكن الانسان أيضاً عن طريق حروبه وغزواته هدم اجزاء من هذه المدن أو تلاشى وجودها فعلا وأصبحت خرائب واطلالا وهجرها أهلها بسبب غزوة أو هجوم أو حرب طويلة ولكن تأتي عصور أخرى وتتعاقب على حياة تلك المواضع ، ويعود العامل الجغرافي للظهور ثانياً وتعود الحياة بالضرورة إلى تلك المدن وتعود إلى الازدهار من جديد لأن ظروف المكان استدعت قيام المدن في تلك المواضع ولم تحد عن ذلك سبيلا آخر . وقد وجدنا من أمثال تلك المدن مرو ومشهد وهما على أطراف بوابة شمال ايران تعانيان فترة من حياتهما وتزدهران فترة أخرى ووجدنا نفس أسلوب الحياة في هرات — طريق

(١) طول الطريق من كابل إلى هرات ٤٠٠ ميل (٦٤٠ كيلو مترا) .

الغزو والدخول إلى حوض كابل ومن ثم إلى ممر خيبر وإلى سهول الهند الشمالية ووجدنا نفس الظاهرة تتكرر فى قندهار .

لذلك نستطيع أن نصل إلى نتيجة هامة فى هذا الموضوع وهى : أنه فى هذه البيئة القاسية — التى يكون مرور طريق تجارى فيها سبباً فى تدفق الثروة إلى الاقليم والأقاليم المجاورة (١) . فى هذه البيئة القاسية يكون العامل الجغرافى ذا أهمية بالغة فى نشأة مراكز العمران وفى التحكم فى حياتها بالازدهار تارة وبالتدهور تارة أخرى . فحينما يستطيع الانسان الاستفادة من الموقع الجغرافى ويحسن استغلال الطبيعة تزدهر المدينة وحينما يختفى أو يضعف وجود العامل الجغرافى لأسباب بشرية فان المدينة تتدهور .

وسنأخذ بابراز هذه العوامل فى حياة المدن الثلاث الرئيسية هرات — قندهار — كابل .

هرات (٢) Herat

ذكر هرات وأهميتها الجغرافية :

ذكرت هرات على أنها من أشهر المدن فى تاريخ الشرق ومهما فقدت هذه المدينة من مجدها القديم فانها لاتزال ويجب أن تظل دائماً موضعاً مهماً بسبب العامل الجغرافى .

وهرات مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان « لم أر بخراسان

---

(١) ذكر هولدتش انه منذ اواخر القرن التاسع عشر دخلت إلى سوق كابل بعض البضائع الانجليزية والروسية ومنها انتقلت إلى اخواتها هرات وقندهار بسبب اتصالها بتلك الطرق البرية (Holdich, India, P. 90) .

(٢) اختلف الكتاب العرب فى كتابة اسم هرات فقد ذكرت فى معظم المؤلفات بالتاء المقفلة مثل كتاب صورة الأرض لابن حوقل (ليدن ١٩٣٩ ص ٤٢٧) ومعجم البلدان لياقوت — بيروت ص ٣٩٦ .

والاصطخرى (ليدن ١٩٢٧) ص ٣٤٨ اما ابن بطوطة فقد كتبها بالتاء المفتوحة (هرات) فى الجزء الأول من كتابه الرحلة —المطبعة الخيرية — الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢هـ ص ٢٩٣ .

عند كونى بها فى سنة ٦٠٧ مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء» (١). ومدينتها بناها الاسكندر حينما دخل إلى الشرق ومر بها إلى الصين (٢) وذكر الأصطخرى (٣) هرات ضمن المدن الكبرى حينما كان يذكر اقليم خراسان «وأما كور خراسان التى تجمع على الأعمال وتفرق فان اعظمها نيسابور ومرو وهراة وبلخ» .

وتقع هرات فى واد خصب يرويه نهر هرى — رود فهى ملتقى الطرق بين اقليم هندكوش فى الشرق وخراسان فى الشمال وسجستان فى الجنوب وايران فى الغرب . وهرات موقع جغرافى ممتاز فتحيط بها من نواحيها الشرقية أطراف سلاسل هندكوش مثل باروبانيساد وكوه — أى — صفيد وتحصران بينهما الوادى الأعلى لنهر هرى رود ولكن أهمية هرات تأتى من كونها تقع عند أول ثنية نهر هرى رود حينما يأخذ فى الاتجاه نحو الشمال فى واد متسع نسبياً أو شبه حوض يقع عند نهاية السلاسل الجبلية . وفى غرب هذا السهل أو نهر هرى رود تبدأ سلاسل أخرى تعتبر امتداداً لسلاسل قزوين وأهمها سلسلة بوشت — أى — كوه ويصنع هرى رود هنا بوابة يصب بعدها شمالا فى سهل مرو مع نهر مرغ آب الواقع إلى شرقه . ويمتد هذا السهل نحو الجنوب حتى كتلة جبلية أخرى تشرف عليه من الجنوب وتمتد بدورها حتى سبخة هامون .

وبذلك وجهت هذه السلاسل والكتل الجبلية منطقة الدخول إلى أفغانستان وأصبحت هرات حارسة على هذا المدخل نحو أرض تركستان الافغانية والروسية من جهة ونحو أفغانستان من جهة أخرى . أما الكتلة الواقعة إلى الجنوب فقد دفعت الطريق إلى السير فى شرقها . فبعد البوابة تضطر

---

(١) ياقوت الحموى (ابن عبد الله الرومى) معجم البلدان مطبعة بيروت ١٩٥٥ م ج ٢٠ ص ٣٩٦ .

(٢) ابن خرداذبة المسالك والممالك طبعة ليدن (بريل ١٣٠٩ هـ) ص ٢٦٥ ويقوله أبو حمد الغرناطى الهروى : هراة ارض خصبها واسع وتنبتها الفاكهة والنرجس .

(٣) الاصطخرى — مسالك الممالك — بريل ١٩٢٧ ص ٢٥٣ .

الطريق إلى الاتجاه نحو هرات ومنها نحو شرق الكتلة الجبلية فيجد مدن سيزوار وفره وجريشك . فكأن المرتفعات هنا تدفع الطريق إلى هذا الاتجاه.

وبذلك أصبحت هرات «فرضة لخراسان وسجستان وفارس» (١) . وكان لها أيضاً صلات مع الجانب الآخر من تلك البوابة الشمالية مع مدن مشهد ونيسابور .

ذكر ابن خرداذبة المسافات بين هرات وسجستان فقال انها تبلغ ٨٠ فرسخاً وبينها وبين نيسابور ٨٠ فرسخاً . وذكر الاصطخرى الطريق من سجستان إلى هرات وعدد به القرى وذكر المسافات بينها (٢) . ونذكر هذه القرى هنا ونعددها لنبين العمران فى تلك المناطق وأهمية الطرق التى تربط بينها . قال : «كركوية على بعد ٣ فراسخ ومنها إلى بشتر فى ٤ فراسخ ويعبر على قنطرة يجرى فيها ما فضل من مياه هندمند ومن بشتر إلى جوين مرحلة ومن جوين إلى بست مرحلة ومن بست إلى كنجر مرحلة ومن كنجر إلى سرشك مرحلة ومن سرشك إلى قنطرة وادى فره مرحلة ومن قنطرة الوادى إلى فره مرحلة ومن فره إلى درة مرحلة ومن دره إلى كوهستان وهى آخر عمل سجستان ومن كوستان إلى خاستان وهى من الاسفزار مرحلة ومن خاستان إلى قناة سرى مرحلة ومن قناة سرى إلى الجبل الأسود مرحلة ومن الجبل الأسود إلى جامان مرحلة ومن جامان إلى هرات مرحلة » . وقد ذكر ابن حوقل نفس الطريق فى كتابه صورة الأرض (٣) .

وبذلك يصل طريق هرات إلى اقليم سجستان ويصبح من السهل اتصاله بقندهار عن طريق جريشك وطوله ٥٧٦ ك متراكما ذكر ذلك هولدتش (٤)

---

(١) الاصطخرى – مسالك الممالك بريل ١٩٢٧ ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٨.

(٣) ابن حوقل – صورة الأرض ليدن بريل ١٩٣٩ ص ٤٢١ .

(٤) Holdich (Sir) India, P. 87.

وهذا الطريق يخترق أراض مفتوحة ورملية وخالية من المياه (داشت) وتمر فيه أكثر بضائع افغانستان التجارية. ومن قندهار إلى كابل وهو طريق رئيسي أيضاً ومهم وقد ذكرت أيضاً مراحله المختلفة إلى غزنة وإلى كابل كما ذكرت القرى ومواضع المياه الموجودة على هذا الطريق (١) . أما اقليم سجستان فقد ذكر فى الكتب العربية وصور على أنه اقليم غنى بالخيرات ويشتمل على قرى كثيرة ومهمة كما قال ابن حوقل : «ناحية خصبة كثيرة الطعام والتمور والأعناب وأهلها ظاهروا اليسار . (٢) أما مدينة غزنة فقد ذكرت على أنها كانت فى يوم من الأيام عاصمة هامة لافغانستان وذات غنى وكان لها شأواً بعيداً فى عهد السلطان محمود الغزنوى كما كانت مركزاً لكثير من الحملات العسكرية التى كانت تغزو الهند . وفى الوقت الحاضر أصبحت غزنة مدينة مهدمة قديمة ذات أهمية بسيطة ولم يبق من عظمتها القديمة سوى مئذنتان .

كذلك تحدثت الكتب العربية عن مراحل الطريق الشمالى الذى يصل هرات باقليم بدخشان (٣) وواخان وخراسان (٤) .

أما اقليم ما وراء النهر الواقع إلى الشمال فيما وراء حوض أمودريا والذى تتصل به هرات أيضاً عن طريق وادى هرى — رود ومرغ آب فهو أيضاً اقليم مهم فى الصلات التجارية مع حوض هراة . وقد ذكره الاصطخرى(٥)على أنه من أخصب أقاليم الاسلام وأنزهها وأكثرها خيراً ... وأما الخصب بها فانه ليس من اقليم ذكرناه الا يقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر » . «وليس مما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرى أو مياخس أو مراع لسائمة وليس من شيء لابد للناس منه الا وعندهم

(١) الاصطخر — مسالك الممالك ص٢٥٠ ، المقدسى أحسن التقاسيم ليدن ١٩٠٦ ص٣٠٣ .

(٢) ابن حوقل — صورة الأرض ص ٤١٨ .

(٣) ذكرت بدخشان على انها مدخل الناس إلى التبت . مختصر البلدان لابى بكر احمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ليدن (بريل) ١٣٠٢ ص ٣٢٢ .

(٤) ابن حوقل — صورة الأرض ص ٤٢٧ .

(٥) الاصطخرى — مسالك الممالك ص ٢٨٧ .

منه ما يقيم أودهم ويفضل عنهم لغيرهم » . «وأما مياههم فانها أعذب المياه وأخفها قد عمت المياه العذبة جبالها وضواحيها ومدنها وأما الدواب ففيها من النتاج ما فيه الكفاية لهم مع كثرة ارتباطهم لها » .

وهذا القول وان كان يبدو به بعض المبالغة وعدم الدقة فإنه يدل على أن هذه المنطقة كانت ذات انتاج وفير وأن بضائعها ومنتجاتها كانت سلعاً تجارية هامة لها وللأقاليم المجاورة .

تجارة هرات : طرق الحرب والتجارة إلى هرات :

كان للموقع الجغرافى لهرات أهمية بالغة فى الاتصال بوسط آسيا وتجارتها فقد كانت قريبة من بوابة ايران الشمالية الشرقية التى كانت تحرسها مدينتان هامتان أخريان هما مرو ومشهد . فكان موقع هرات فى شرق هذه البوابة موقعاً استراتيجياً وتجارياً هاماً وأصبحت المدن الثلاث مرو — مشهد — هرات مثلث آخر يتحكم فى هذا المدخل الشمالى الشرقى لايران واتخذت هرات أهمية جديدة من حيث صلاتها بهذا المدخل إذ أصبحت كل الطرق الواصلة من وسط آسيا والتى تخترق البوابة تتجمع عند هراة كمرحلة أولى لدخول افغانستان أو شبه القارة الهندية فكان موقع هراة هنا موقعاً حساساً وخطيراً بالنسبة للدخول إلى أرض أفغانستان أو أرض الهند . ولذلك سارت طرق الحرب والفتح والتجارة التى أتت من وسط آسيا ذاهبة إلى الهند عن طريق هذا المدخل وتعرضت هرات لهذه الموجات المتلاحقة عبر تاريخها .

فقد كانت هرات مدينة مزدهرة وبها المبانى والحصون وبلغت شأوا عظيما فى عهد الساسانين ، كذلك فى عهد السامانيين والغزنويين والسلاجقة احتفظت هرات دائماً بأهميتها ولكن قاست المدينة كثيراً فى عهود غزوات المغول لأنها كانت فى طريق دخولهم إلى أرض الهند . ففى عام ١٢٢٢ م استولى عليها تولى Tuli ابن جانكيزخان وقتل الكثير من سكانها وشردهم ثم حكمتها جماعات التاجيك تحت سيطرة المغول حتى عام ١٣٠٧ م حينما استعاد المغول هرات مرة أخرى وجعلوا على عرشها غياث الدين

وازدهرت هرات لفترة من الوقت ثم انهارت مرة أخرى تحت وطأة غزوة تيمورلنك عام ١٣٨٣م وأصبحت هرات بعد موته عاصمة للتيموريين فكان عهداً جديداً لها بنيت فيه المبانى الجميلة وأصبحت مركزاً للفن والعلوم.

واستمرت هرات مدينة مزدهرة ومزدحمة بالسكان حتى انهارت مرة أخرى بسبب غزوة شيبانى الذى استولى عليها عام ١٥٠٧ م وكانت هناك حملات للأمير بابر على هرات باءت كلها بالفشل . ثم انشأ الأمير شاه اسماعيل دولة الصفويين عام ١٥١٠ م .

وقد استمرت هرات تحت النفوذ الفارسى وكانت دائماً موضعاً للكر والفر بين الشيبانيين وبين الفرس . وانهارت قوة الصفويين ووقعت هرات فى قبضة الدرانيين ورئيسهم أحمد شاه فى القرن السادس عشر .

ثم بدأ التدخل الخارجى الروسى والانجليزى والفارسى فى هرات وفى القرن التاسع عشر أعاد الفرس غزوهم للمدينة وانتصروا وبقيت المدينة تحت امرتهم حتى عام ١٨٦٣ م حينما استولى عليها دوست محمد وتوالى عليها ملوك الفرس وأخيراً حكمها شير على الذى جمع جيشاً وقهر به جيوش الانجليز . وفى عام ١٨٨٥ وضعت حدود مقاطعة هرات . وقام الأمير عبد الرحمن بتحصينها .

هذا الكر والفر إن دل على شيء فانما يدل على أهمية موقع مدينة الحدود التى تقع عند مدخل الاقليم ومايترتب على هذا العامل الجغرافى من فترات من الازدهار واخرى من التدهور ثم هنا فى هرات بالذات يدلنا على مدى اتصالها بأرض الفرس فى الغرب وأرض طوران فى الشمال ثم أرض افغانستان فى الشرق .

ولم تقنع هرات بهذة الأهمية العسكرية وانما مارست التجارة أيضاً على طريق الحرب والغزو . فكانت صلاتها مع البلاد المجاورة صلاة وثيقة بعضها ثقافى وبعضها مادى .

فكان يخرج من هرات على طرق التجارة إلى البلاد المجاورة « البز

الكثير(١) وديباج دون وخلدى والزبيب الطائفى والعنجد الأخضر والأحمر ودوشابه وناطفة والبولاذ والفستق وأكثر حلاوات خراسان» .

ويأتى اليها من مرو «الملاحم ومقانع القز والابريم والقطن والبقر والجبن والبزر والشيرج والنحاس » . ومن سرخس الحبوب والجمال .

ومن سجستان يأتى إلى هراة التمور والزنابيل والحبال من الليف والخضر . ويرتفع من قوهستان ثياب .. وبسط ومصليات حسنة . من بلخ الصابون والسمسم والأرز والجوز واللوز والزبيب والعنجد والسمن وعسل الشمس من العنب والتين ولب الرمان والزاج والكبريت والرصاص واسرك الزرنيخ والانجرة .. والادهان والجلود .. واللبود والبسط الحسان والحقائب والنخيل الجيدة والبغال» .

ومن ترمذ الصابون .. ويرتفع من بخارى الثياب الرخوة والمصليات والبسط وثياب الفرش» .

وقد أشاد المقدسى فى كلامه بالخبز فى مرو واللحم فى بخارى والأعناب فى هرات والمعادن فى نيسابور .

كذلك كانت تنقل عن طريق هرات الملابس المصنوعة من القطن ويقول الاصطخرى ان هذه الصناعة قامت فى هرات وكان الفائض منها يرسل إلى الآفاق البعيدة كما ذكر أنه كانت تقوم فى هرات تجارة الفراء والصوف والأدبار (٢) والمعادن مثل الحديد الذى تصنع منه الأسلحة والأدوات المختلفة . كذلك كانت بها معادن الفضة والذهب والزئبق . ويذكر الاصطخرى (٣) أن هذه المعادن كانت كثيرة فى هرات ولا يزيد عليها فى هذه الكثرة سوى بنجهير التى اشتهرت بالفضة . وكانت هذه المعادن وبخاصة الزئبق والذهب تأتى من اقليم ما وراء النهر .

---

(١) المقدسى . احسن التقاسيم طبعة بريل – ليدن ١٩٠٦ ص ٣٢٤ .

(٢) كانت الأدبار تصنع من حيوانات السمور والسنجاب والثعالب وغيرها .

(٣) الاصطخرى – مسالك الممالك ص ٢٨٧ .

أما الفاكهة فهى متعددة الأنواع ومتوفرة فى هرات (١) وكذلك الزعفران ثم المسك الذى كان من السلع الهامة فى تلك الأزمنة ، وكان يجلب من اقليم التبت وخرخيز .

تخطيط هرات :

بنيت هرات لتكون مدينة مربعة الشكل يحيط بها سور له أبواب . وقد بقيت أجزاء من تلك الأسوار حتى الوقت الحاضر . ولقد قامت بعثة (٢) بتفويض من اليونسكو من أجل دراسة الآثار القديمة فى هرات واستنتج علماؤها أن هرات بنيت أصلا على مساحة عرضها حوالى ١٣٠٠ متر من الشرق إلى الغرب ، طولها ١٤٠٠ متر من الشمال إلى الجنوب . ذكر ابن حوقل (٣) أن مساحة المدينة كانت تبلغ نصف فرسخ فى مثله وهى مبنية من طين (٤) . كذلك كان يخط المدينة القديمة شارعان رئيسيان يتقاطعان بزاوية قائمة ويكادان يقسمان المدينة إلى أربعة أقسام متساوية ويوجد المسجد الكبير فى الربع الشمالى الشرقى من المدينة . ونحن نعلم أهمية المسجد فى قيام المدن العربية والاسلامية . ويلتقى عند المسجد ثلاثة شوارع رئيسية من الشمال والغرب والجنوب .

ويقول M. Wilber ان المسجد يرجع فى تاريخه إلى القرن الرابع عشر وأقدم جزء فيه يعود إلى عام ١٣٠٠ وهو يرجعه إلى أحد خلفاء جانكيزخان وان كان ليزين يرجعه إلى عهد أقدم من ذلك .

---

(١) يقول الاصطخرى انه لكثرة الفاكهة كانت الدواب ترعاها .

(٢) Alexandre Lézine "Herat" notes de voyage. B. d'Etude Orientales, T. XVIII, 1963 — 1964. Damas 1964 P. 127.

(٣) ابن حوقل – صورة الأرض – بريل ١٩٣٩ ص ٤٣٧ .

(٤) الاصطخرى – مسالك الممالك (بريل ليدن ١٩٢٧) ص ٢٦٣ .

وفى شرق المدينة توجد حديقة يحيط بها شارعان هامان يخرجان من الشارعين الرئيسيين الشمالى والجنوبى . وتمتد الحديقة فى الوقت الحاضر إلى ناحية الشرق فتخرج عن الأسوار القديمة .

أما القلعة (١) . فقد بلغ ارتفاعها ٢٥٠ متراً وهى تقع فى الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة على مرتفع من الأرض . وكان يخرج من القلعة طريق رئيسى إلى الشمال الذى كان يعتبر مدخلا مهماً لأنه المدخل نحو وسط آسيا ونعتقد بأن وجود القلعة فى هذا الركن كان لكى تحرس الجبهة الشمالية للمدينة . أما جنوب المدينة فليس به سوى حصن فى جانب السور الشرقى . وكان بجوار القلعة بئر وفى داخل الجزء الشرقى من القلعة بئر آخر . وكان يحيط بالقلعة عدد من الأبراج (يبلغ ٢٢ برجاً) وكلها مبنية بالطوب الأحمر .

وفى عهد أحدث شيد حمام عام فى الحائط الشمالى للقلعة مكان أحد الأبراج . وكان وجود هذا المرتفع الطبيعى بالقرب من المدينة سبباً فى بناء القلعة التى أصبحت مركزاً للدفاع عن المدينة كلها . ويقال ان هذا المرتفع من الأرض كان مرتفعاً صناعياً من عمل الانسان .

ويقول ابن حوقل والاصطخرى (٢) ان للحصن أربعة أبواب كل منها بحذاء كل باب من أبواب المدينة ويسمى باسم ذلك الباب . كما أن خارج الحصن جدار يطوف بالحصن كله أطول من قامة وكان بينه وبين الحصن أكثر من ثلاثين خطوة . ويوجد بالمدينة سجن ويقع على الظهر قبلة مسجد الجامع بالمدينة عدة آبار جاء بالخريطة الألمانية أن عدد هذه الآبار ٢٥ بئراً (٣) كما أن هناك بئر مياه القلعة .

---

(١) شيدها أو جددها اختيار الدين عام ١٢٩٩ وفى عصور سابقة كانت القلعة تقوم فى وسط المدينة وتدل أسوارها على ان تيمور لنك قد أعاد تشييدها فى ذلك المكان لأنه رأى ان الدفاع عن وسط المدينة المتسع لم يكن كافياً .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٤٣٧ والاصطخرى مسالك الممالك ص ٢٦٣ .

(٣) Op. cit, Lézine, Herat ... P. 129

وتعتبر المزارات من الآثار الهامة فى المدينة وقد سماها الأجانب زيارات Ziarat وأهمها ما وجد بجوار القلعة كذلك هناك آثار فارسية ومعظم مبانيها من الطوب الأحمر . ومن دراسة آثار المدينة يمكننا أن نتفهم تطور تاريخها . وإذا كانت أول المدن التى انشئت باسم الاسكندر أنشئت هنا فى هرات فاننا نجد بالحفر فى فناء القلعة آثار مبان يونانية . وإذا حاولنا دراسة هذه الآثار وجمع المعلومات منها فاننا من الممكن أن نعتبر أن القرن الرابع عشر هو عهد نشأة أقدم الآثار فى المدينة (حوالى ١٣٠٠) ويعود ذلك التاريخ إلى أحد خلفاء الامبراطور جانكيزخان (M. Wilber) وان كان ليزين يعود بذلك التاريخ قرناً آخر إلى الوراء (١) .

هذا وكغيرها من المدن القديمة كانت هرات محاطة بسور له أربعة أبواب (٢) . فالباب الذى يخرج منه إلى بلخ (شمالا) يعرف بباب سراى. والباب الغربى الذى يخرج منه إلى نيسابور يسمى باب زياد . والباب الذى يخرج منه إلى سجستان فى الجنوب يسمى باب فيروز أباد — والباب الذى يخرج منه شرقاً إلى الغور يسمى باب خشك . وقد كانت هذه الأبواب مصنوعة من الخشب باستثناء باب سراى فانه كان مصنوعاً من الحديد . وكان عند كل باب سوق . وكانت أبواب السور هذه مقابلة لأبواب الحصن الأربعة التى تسمى بنفس اسمائها . وكانت هذه الأبواب عامرة بالبساتين والمياه الجارية . وكان أكثرها بساتيناً هو الباب الجنوبى المسمى « فيروز أباد» (٣) أما النهر فكان يسير بجوار باب المدينة ويعبر بالقنطرة «ومخرج الماء من قرب قرية رباط قروان» . فاذا خرج من الغور إلى هرات انشعب إلى عدة أنهار أحدها نهر آنجير الذى يسقى مدينة هرات والبساتين المتصلة الواقعة على طريق سجستان (٤).

---

(١) Op. cit, Lezine, Herat P. 133.

(٢) المقدسى — أحسن التقاسيم — (بريل — ليدن ١٩٠٦) ص ٣٠٤ .

(٣) الاصطخرى — مسالك الممالك ص ٢٦٥ .

(٤) ابن حوقل — صورة الأرض ص ٤٣٨ .

وقد انتصر اشعث بن محمد على هرات وأمر صاحب خراسان أن يهدم سور تلك المدينة . واستولى على حصنها وطمس معالم السور . « فكأنه لم ير لها قط سور ولا كان عليها حصن » (١) .

ويظهر من تلك الأوصاف أن مدينة هرات كانت دائماً ذات أهمية استراتيجية واقتصادية . وكانت صلاتها كبيرة بالاقليم الذى يقع فى جنوبها بدليل ازدهار السوق الجنوبى وكثرة موارد المياه الموجودة هناك . وفعلا كان هذا الباب يؤدى إلى طريق مهم يصل إلى مدن مثل سبزوار وفرة وقندهار التى تتصل بمرو بولان من جهة وكابل من جهة أخرى . وكان هذا الطريق هو الطريق الرئيسى الذى يصل إلى كابل . كذلك كان الباب الغربى — باب زياد — الذى يصل إلى نيسابور مهما هو الآخر لأنه يصل إلى الطريق الرئيسى المار فى جنوب بحر قزوين إلى بلاد الشرق الأوسط . وأستطيع أن استشهد بوجود تلك الصلات التجارية لأننا وجدنا بالعراق قمحاً يسمى قندهارى يعمل منه العيش الأبيض» .(٢) أما الباب الشمالى المسمى باب سراى فكان مصنوعاً من الحديد ليكون متيناً ولان الغزوات كانت تأتى فى معظمها من وسط آسيا . فهناك مرو وبخارى وغيرها وهناك بوابة مشهد التى كانت تعتبر باب الدخول إلى هرات بل إلى الهند نفسها وعن طريقه دخلت غزوات المغول وغيرها من جحافل وسط آسيا إلى الهند . ولذلك كان هذا الباب مهماً عسكرياً لدفع هذه الغزوات ومقاومتها .

ولذلك كله يتبين لنا أهمية نشأة مدينة هرات فى هذا الموقع الجغرافى . ومهما يكن من شىء فان هرات مهما فقدت من مجدها القديم فانها لا تزال ويجب أن تظل دائماً موضعاً هاماً ولا شك أن الأمن وتحسين المواصلات سيساعدان كثيراً على اتساعها وكبرها وهذا يؤيد أهمية العامل الجغرافى فى نشأة مدينة فى هذا الموقع الجغرافى الممتاز .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣٧ .

(٢) Burot et Dresch, La Mditerranée et le Moyen Orient, Paris 1964, T.II, P. 436.

قندهار

ذكر قندهار وأهميتها الجغرافية :

لم تكن قندهار بأقل أهمية من هرات فهى على طريق الصلة إلى كابل والمحطة الرئيسية فى اقليم صحراوى متسع .

ذكر المقدسى قندهار على أنها قَنْدَهار أو قَنْدُهار(١) كماذكرها ياقوت على أنها قَنْدُهار (٢) وخصها «فى الاقليم الثالث طولها ١١٠° وعرضها ٣٠ ° . وهى من بلاد السند أو الهند . مشهورة فى الفتوح » (٣) . والذى يهمنا هنا هو أن قندهار ذكرت أحياناً على أنها من بلاد السند أو الهند وأحياناً أخرى من بلاد الهند فحسب (٤) . وليس هذا خلطاً ولكن الحقيقة أن افغانستان لم تتخذ اسمها الا فى أواسط القرن الثامن عشر . وقبل ذلك العهد لم تكن افغانستان تكون وحدة سياسية قائمة بذاتها وانما كان كل قسم منها يستقل بنفسه ويحمل اسمه ، ولم يكن يربط بين تلك الأقسام أية لغة أو عنصر وإنما كان الاقليم يسمى بلادَ الافغان . وظلوا خاضعين اسماً للحكام الأقوياء من المغول وبنى تيمور وملوك المغول فى الهند والملوك الصفويين فى فارس حتى وصول الغلزائيين إلى الحكم والدرانيين فى عهد أحمد شاه . وحينذاك أصبح الافغان عنصراً حاكماً لجزء كبير من سكان تلك المنطقة وامتد اسم افغانستان حتى شمل جميع البلاد ومنها جزء كبير عرف فى ذلك الوقت باسم خراسان وهو اسم شائع يطلق فى الوقت الحاضر على هضبة تقع شمال جبال سليمان .

وقد ورثت قندهار مقاطعة قديمة كانت تقع مكانها وكان اسمها زمين

---

(١) المقدسى – أحسن التقاسيم (ليدن المحروسة بريل ١٩٠٦) ص ٦٠ .
(٢) ياقوت الحموى . معجم البلدان (مطبعة بيروت ١٩٥٥) ص ١٦ .
(٣) المرجع السابق – ص ٤٠٢ .
(٤) ابن خرداذبه – المسالك والممالك ص ٦٨ .

دوار Zamindawar, وتشمل الوادى الأدنى لنهر هلمند وترنك وارغند آب وارغشان ، وأصبحت مركزاً لأسرة درانى (١) .

وتعتبر مدينة قندهار الحديثة الواقعة على نهر ارغند آب عاصمة المقاطعة المسماة باسمها منذ القرن الخامس عشر . وهى قد أخذت الأهمية من المدن الأقدم منها مثل جريشك وبست Bust . وقد جعلها أحمد شاه حاضرة ملكه وسماها «أحمد شاهى» وهو نفس الأسم الذى نقشه هو وخلفاؤه على مساكنهم واتخذ لنفسه لقب «دردران» وأصبحت قبيلته وهى قبيلة أبدالى تعرف منذ ذلك اليوم باسم «درانى» (٢) .

واكتسبت هذه الأسرة سيطاً بعيداً ومكانة عظيمة بين القبائل ولما كان هذا الملك قد اتصف باللباقة وحسن معاملة القبائل فقد استطاع أن يوطد سلطانه واعتمد فى تدبير الأحوال الاقتصادية فى مملكته على ما يجلبه من مغانم الحروب الخارجية أكثر من اعتماده على فرض الضرائب . وقد نشطت التجارة فى عهده بين افغانستان والهند وبخاصة وقت السلم (٣).

وتعتبر قندهار ذات موقع جغرافى هام وممتاز إذ أنها تقع عند نقطة التقاء الجبل بالهضبة إذ عندها تنتهى حافة عالية من جبال هندكوش وغربها ينفتح السهل حيث تتجمع مجموعة روافد نهر ارغند آب لذلك كانت قندهار ولازالت حارسة لكل الطرق الذاهبة إلى السهول القريبة — إذا استطعنا تسميتها سهولا — وكل الطرق الجبلية النازلة اليها من جبال هندكوش وممراتها . وقد ذكر هولدتش « ان الطريق الواصل بين كابل من ناحية وقندهار من ناحية أخرى هو طريق لا يندثر مطلقاً بسبب أهمية موقعه

---

(١) قال يزيد بن مفزع :

كم بالجروم وارض الهند من قدم ... ومن سرابيل قتل ليتهم قبروا
بقندهار ومن تكتب منيته ... بقندهار يرجم دونه الخبر

(٢) تعيش بعض بقايا هذه الأسرة فى مدينة بشاور ويعتبرون من عليه القوم هناك .

(٣) Holdich (Sir T.H.), India, P. 90.

الجغرافى وهو يتبع الخطوط الرئيسية للمجارى المائية الوسطى كما يخترق التلال الرئيسية التى تقع فى شمالها » (١) .

وخلال القرن التاسع عشر كانت مطامع بريطانيا فى اقليم بلوخستان تتركز فى رغبتها السيطرة على طرق هرات وقندهار والتى كانت تعتبرها المفاتيح إلى غرب افغانستان وجنوبها (٢) .

ولقد خلقت الممرات الجبلية والطرق كثيراً من المدن فى المنطقة فلقد اشتهرت مدينة كويتا لوجودها قرب ممر بولان واشتهرت بشاور لقربها من ممر خيبر واشتهرت نيوشامان لقربها من ممر خوجاك أو تشامان . وأصبحت قندهار مركزاً لالتقاء كل الطرق الآتية من الشمال أو الجنوب فى أفغانستان . فالطريق من قندهار إلى كويتا يسير مسافة ١١٢ كيلو متراً حتى تشامان ومنها حوالى ١٩٠ كيلو متراً حتى كويتا ومن قندهار إلى هرات ٤٨٠ كيلو متراً .

وتتجمع الطرق عند قندهار أحدها يسير إلى كابل ومن ثم إلى حوض بشاور والآخر إلى كويتا وحوض السند الأدنى وقد كانت بريطانيا دائماً تقف بعين الحذر لتراقب تلك المنطقة بكل حرص لأنها تنفتح نحو الهند أو تركستان الروسية . ولذلك فقد اقتنع الأفغان أنفسهم أنه على طول هذا الطريق الكبير العظيم يتوقف مستقبل الهند كلها . فالمنطقة الممتدة من جريشك إلى فره عند مداخل قندهار الغربية عبارة عن أرض مغطاه بالاستبس وهى أرض مفتوحة ليس بها شجرة ولا جبل وقد قامت فى هذه المنطقة أشد المعارك الحربية قسوة بين افغانستان وبريطانيا (٣) . وهذا ان دل على شىء فهو يدل على الأهمية الاستراتيجية للطرق . والمدن المشرفة على تلك المنطقة الحساسة من أرض أفغانستان . ومن فحص الخريطة نلاحظ

---

(١) Ibid, P. 89.

(٢) Spate (O.H.K.), India & Pakistan, London 1960 P. 431.

(٣) Blanchard (R.) Asie Occidentale, P. 157.

أن قندهار توجد فى منطقة طبيعية تتعدد ظواهرها ؛ فالى الشرق منها منطقة جبلية تسير فيها وديان تخترقها طرق رئيسية وهامة وإلى غربها منطقة مفتوحة تنفتح إلى منطقة هضبة منبسطة تكاد تشبه السهول وإلى جنوبها منطقة صحراوية قاحلة كانت تعتبر فى كل العصور منطقة حماية بالنسبة لقندهار ذات الموقع الحصين . ولذلك كانت قندهار فى طريق السائر إلى الشرق أو إلى الغرب . ولم تكتسب أهميتها فقط لهذا الموقع الاستراتيجى وإنما زاد أهميتها انها تقع فى وسط واحة فأصبحت مركزاً لزراعة الفاكهة ومحطة للترانسيت بين شرق أفغانستان وغربها على تلك الطرق الرئيسية الهامة .

تجارة قندهار : تعتبر قندهار واحة خصبة مستوية السطح ترتفع إلى ١٠٦٠ متراً فوق سطح البحر وهى مركز لانتاج الفاكهة الجيدة الأنواع كالكروم والشمام والتفاح والكمثرى وغيرها . وتكاد تتركز ثروات جنوب أفغانستان فى قندهار فان وديان ارغنداب وارغشان ومنطقة زمين دوار تغطيها أصلح تربات غرب أفغانستان الزراعية كما استخرج الذهب قديماً بالقرب من قندهار ولم تكن الطرق التى تلتقى عند قندهار طرق حرب فقط وانما كانت طرقاً تسير عليها تجارة افغانستان الداخلية ، وفى بعض الأحيان التجارة الخارجية . وان كان يفضل نقل البضائع إلى الخارج عن طريق كويتا قديماً وعن طريق ممر خيبر وبشاور وحوض السند حديثاً .

وأهم واردات قندهار الأقمشة الحريرية والصوفية والاابر والورق والعقاقير الطبية وكذلك بضائع هندية مثل التوابل أما قندهار فهى تصدر الأصواف الخام والفاكهة المجففة والطباق والحرير الخام والسجاجيد الايرانية والأوانى النحاسية والسيوف . وأهم الصناعات بها الحرير والجوخ الذى تعمل منه بعض ملابس فصل الشتاء .

تخطيط قندهار :

ولا تختلف قندهار كثيراً عن مدن الشرق إذ أن تخطيطها يشبه تخطيط

المدن العربية والاسلامية القديمة فهى تكاد تشغل مربعاً من الأرض يحيط به سور به قلعة تشرف على المكان وتحقق الأهمية الاستراتيجية للمدينة . وأهم الأجزاء فى المدينة هو السوق والمسجد . ويعتبر السوق المكان الذى تتلاقى فيه الشوراع الأربعة الرئيسية المتقاطعة فى المدينة وتتفرع منه الشوراع الثانوية .

إلا أن هذا السور قد تهدم فى أجزاء منه لكى تكبر المدينة وتتسع الا أن بقاياه وبقايا القلعة القديمة لا تزال موجودة تنبىء عن ذلك التاريخ القديم الزاهر وتبين أهمية العامل الجغرافى الذى كتب أسطر هذا التاريخ .

كابل

ذكر كابل وأهميتها الجغرافية :

تشرف كابل على الأحواض العليا لنهر كابل ولوجار وتاجاو وغزنة «وكابل بضم الباء مدينة معروفة فى بلاد الترك» . (١) وقد ذكرت كابل باسم كابلان شاه (٢) . كما ذكرت على أنها من ثغور اقليم طخارستان . وقد ظلت كابل دائماً مدينة مستقلة أكثر من غيرها من مدن أفغانستان (٣)

وقد ذكر الكتاب العرب أن كابل هى فرضة الهند (٤) ولها عند الهنود شان (٥) . وذكر ياقوت (٦) أن كابل ولاية ذات مروج كبيرة

---

(١) البكرى الأندلسى (معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ص ٤ طبعة السقا القاهرة ١٩٥١ م ص ١١٠٨ .

(٢) ابن خرداذبة المسالك والممالك (ليدن بريل ١٣٠٩ هـ) ص ١٧ .

(٣) يزعم بعض الكتاب العرب ان الشاه لا يستحق الملك إلا بأن يعقد له الملك بكابل وان كان منها على بعد ولا يستحقه حتى يصل اليه فيعقد الشاهية له هناك .

(٤) الاصطخرى – مسالك الممالك (بريل ليدن ١٩٢٧) ص ٢٨٠ .

(٥) المقدسى – أحسن التقاسيم (ليدن – بريل ١٩٠٦) ص ٣٠٤ .

(٦) ياقوت – معجم البلدان حـ ١٦ ص ٤٢٦ .

بن هند وغزنة .. ونسبتها إلى الهند أولى» . وقال ابن الفقيه : «كابل من ثغور طخارستان ولها من المدن واذان وخواش .. ولكابل عود وتارجيل وزعفران وأهليلج لأنها متاخمة للهند» (١) .

«وكابل لها قلعة حصينة واليها طريق واحد وفيها المسلمون ولها ربض به الكفار من الهنود» (٢) . كما ذكر بروكلمان : «اقليم كابل الهام الواقع على الحدود والذى يسيطر على الممالك المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب» (٣) .

ويهمنا من هذه النصوص المختلفة عدة نقاط تتلخص فيما يأتى : أولا أن كابل تذكر دائماً على أنها متاخمة للهند أو متعلقة بالهند أو فرضة الهند فى تعبير صريح وثانياً أن كابل فرضة أى عاصمة أو مدينة رئيسية .

وتتبين لنا الناحية الأولى فى أن حوض كابل يقع فى الناحية الغربية لممر خيبر مقابلا لحوض بشاور الذى يقع مقابلا له فى الناحية الشرقية وبينهما طريق طوله ٢٧٢ ك متراً يخترق سلاسل الجبال . و قد كان للحوضين آثار عظيمة ليس فى توجيه التاريخ فى المنطقة كلها فحسب بل فى توجيه تاريخ كل من الهند وأفغانستان . ولقد كانت كابل مقر ملوك المغول واتخذها الدرانيون عاصمة لهم بدلا من قندهار وأصبحت منافستها بشاور مركزاً للقبائل التى تعيش فى السهول القريبة من نهر السند حتى استولى عليها السيخ فى عام ١٨٣٤ م ، وصارت بشاور جزءاً من الهند البريطانية منذ عام ١٨٤٩ م وبذلك انفصلت نهائياً عن افغانستان ولم تصبح كابل فرضة للهند .

وأما الناحية الثانية فتظهر لنا فى الأهمية الجغرافية لمدينة كابل .

أهمية كابل الجغرافية : إذا تأملنا الخريطة نجد أن كابل ملتقى لطرق

---

(١) المرجع السابق ج ١٦ ص ٤٢٦ .

(٢) الاصطخرى – مسالك الممالك ص ٢٨٠ .

(٣) كارل بروكلمان – تاريخ الشعوب الاسلامية – بيروت ١٩٤٩ ص ١١٩ .

أفغانستان الآتية من الغرب . وهى مفتاح للطرق الذاهبة إلى الهند وهى تشرف تماماً على تلك الطرق بدليل قول الاصطخرى « ولها طريق واحد» . كما أيد ذلك كثير من كتاب الغرب حينما ذكروا ان كابل تشرف على كل الطرق الذاهبة إلى شبه القارة الهندية كما تشرف على الطرق التى تتجمع عند قندهار . وكان هذا ولا يزال هو السبب الذى جعل كابل أكثر أهمية من قندهار أو هرات لكى تمسك مفتاح الهند . وتؤيد الخريطة هذا الكلام كله ، إذ اننا نجد أن كابل تقع فى حوض نهر كابل الأعلى وتحيط بها الكتل الجبلية العالية من كل جانب ولكنها مع ذلك من الممكن أن تتصل بالعالم فيما وراء تلك الكتل الجبلية عن طريق وديان نهرية أو ممرات هيأتها الطبيعة لكى تعطى ذلك الحوض موضعاً استراتيجياً هاماً .

فالى الجنوب نجد نهر لوجار وأعالى هلمند والطرق المنفتحة اليهما تصل كابل بمدينة قندهار عن طريق غزنة . وهى فى الوقت الحاضر محله صغيرة مهدمة وان كانت فى القديم مدينة مزدهرة ، وقصبة رحبة منعمة طيبة الفواكه وكان لها أربعة أبواب أشهرها : باب باميان . ويبلغ طول هذا الطريق ٥٠٠ ك متر .

وإلى الشمال نجد ممرات لاتاباند وأوناى وشيبار وهى تصلها باقليم خراسان فى الشمال حيث «مدن الواحات»-الغنية وطول هذا الطريق حوالى ٦٠٠ ك متراً .

وإلى الشمال الشرقى نجد ممر خوك وما ندال الذى يصلها باقليم واخان الشهير ورافد أمودريا الأعلى وإلى الشمال الغربى نجد ممرات آق رباط ونيل وطريق مدينة باميان الشهيرة . وهى تصلها بحوض هرى رود الأعلى الذى يصل بالتالى حتى هرات . ومن المعروف أن هذا الطريق كان فى أغلب الأحيان طريق الدخول إلى أفغانستان . وإلى الشرق نجد طريق جلال اباد الذى يمر بممر جكدلك ومنه إلى خيبر — المدخل الرئيسى لشبه القارة الهندية .

ولذلك كله أصبحت كابل مدينة هامة ومركزاً للطرق الافغانية الذاهبة إلى شمال الهند أو الآتية منه فتلتقي عندها عدة طرق من تركستان وهرات وغزنة وقندهار ووادى كرم والبنجاب عن طريق جلال أباد. ولذلك أيضاً أصبحت كابل مركزاً تجارياً بالنسبة لوسط آسيا . وهى تعتبر مركزاً لتجمع المتاجر من شبه القارة الهندية . : تأتيها الأقمشة القطنية والأصباغ والتوابل والعقاقير الطبية . ومن تركستان تأتيها الأقمشة القطنية والحرير والمخمل والورق . وتشتهر كابل نفسها بالفاكهة والقمح وأنواع الفاكهة بها جيدة وهى تصدر معظمها إلى حوض بشاور فى باكستان . وأهم أنواع الفاكهة : الكرم الجيدة والتفاح والكمثرى والبرقوق والفاكهة المجففة .

ويقول هولدتش ان العين ترامى لعدة مئات من الأميال المزروعة بالقمح تقطعها فى أجزاء منها أشجار التوت والمشمش والجوز . وتشتهر منطقة كوه دامان شمال كابل بانتاجها الوفير من الفاكهة . وكذلك سهل تشرده الواقع فى غرب كابل وكذلك حوض لوجار فى الجنوب الذى يشتهر بالقمح .

ولكابل قلعة حصينة قديمة وكان لها سور كغيرها من المدن القديمة : وأهم مركز عمرانى فى المدينة هو السوق وتخرج منه أربع شوارع متقاطعة. والسوق مغطى مثل أسواق المدن العربية والشرقية . وتجتمع فيه الصناعة والتجارة .

ويميز الأسواق الافغانية ازدحام الشوارع ووفرة السلع مثل الشمام والتفاح والعنب والرمان والكمثرى والبرقوق والجوز وبجوارها نجد حوانيت طرق النحاس والنحاس الأصفر بنوع خاص وكذلك الحديد ثم صناع الفخار والمطاعم والمقاهى ومحلات بيع الأقمشة كحرير بخارى وسجاجيد وسط آسيا وتركستان ثم المصنوعات الصوفية المحلية والجلود والفراء. وفى جزء من السوق نجد حوانيت الجزارة والأفران وصانعى الأحذية الافغانية المزركشة . والتجارة مزدهرة دائما بين افغانستان وشبه القارة

الهندية فى عهود السلم كما حدث فى عهد أحمد شاه وكانت هذه التجارة تسير على الطرق والدروب وتتجمع فى المراكز العمرانية التى تعتبر أماكن للاستراحة . ولذلك اتخذت كل تلك المدن أهميتها ليس بسبب الثروة الزراعية وانما لكونها مراكز تجارية واستراتيجية هامة . وهذا بسبب العامل الجغرافى الذى أكسبها تلك الأهمية .

وهكذا وجدنا ان مدن هرات – قندهار – كابل أصبحت بموقعها الجغرافى أهم مراكز فى اقاليمها ويزيد من تلك الأهمية أن كلا منها نشأت فى واد خصب وتكفى نفسها بنفسها . كما أصبحت تتحكم فى مجموعة من الطرق تؤدى إلى مدن أخرى فى شبه القارة الهندية أو ايران أو تركستان وآسيا الوسطى .

هذا ونجد أن هذه المدن الثلاث وان كانت شاهداً على أهمية العامل الجغرافى فى هذه المناطق وكانت تعتبر دائماً الخط الأول لارتباط الصلات وانعقادها فى تلك الأقاليم الجبلية الا أنه كانت هناك طرق أخرى تمتد مع تلك السلاسل وتؤدى إلى نشأة المراكز العمرانية الزاهرة . ومن أمثلة ذلك غزنة وجلال اباد وجريشك وسبزوار ومدن خراسان .

وعلى ذلك فمن الممكن أن نقول ان اقتراب الجبل من السهل أو الجبل من الوادى قد أدى إلى خلق تلك الواحات التى تجمعت عندها بعض المياه القليلة المنحدرة من السفوح فكونتها . ففى هذه الأقاليم القاحلة القليلة السكان نشأت المراكز العمرانية وازدهرت وسط السلاسل الجبلية المقفرة وكان عامل اقتراب الجبل من الوادى عاملا جغرافياً أساسياً نشأت بسببه تلك المدن ثم اتصلت بعضها ببعض عبر الجبال تارة إذا توفرت الممرات الجبلية، ومع اتجاه السلاسل نفسها تارة أخرى إذا لم تتوفر . وهكذا كانت هذه المدن هى مدن التجارة والحرب .

وفى ختام البحث أصل إلى نقطة هامة ورئيسية وهى أن العامل الجغرافى

الذى يتلخص فى التقاء الجبل بالسهل أو الوادى قد أدى إلى نشأة المدن . وقد سبق أن تكلمت عن عامل جغرافى آخر فى نشأة المدن وهو اتصال اليابس بالماء عند نشأة مدينة السويس . وبذلك نجد أن مسألة العامل الجغرافى تتحكم إلى مدى بعيد فى نشأة المدن فوجود الممرات الجبلية أو الأنهار التى تخترق المرتفعات تؤدى إلى نشأة المدن عند المنافذ فى مناطق الوعورة ونجد كثيراً من أمثال هذه المدن فى قارات أخرى من العالم تفتح أمام الباحثين مجالات أخرى للبحث والاستقصاء .

المراجع

المراجع العربية :

ـ ابن بطوطة : (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله «تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار» .
طبعة بيروت ١٩٦٠م . وطبعة المطبعة الخيرية ١٣٢٢ هـ (الطبعة الأولى) .

ـ ابن حوقل : أبو القاسم (كتب عام ٩٧٧م) صورة الأرض ـ ليدن بمطبعة بريل ١٩٣٩ م .

ـ ابن خرداذبة : أبوالقاسم عبيد الله بن عبد الله ـ المسالك والممالك ـ ليدن ـ بريل ١٣٠٩ هـ .

ـ الاصطخرى : أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسى ـ المعروف بالكرخى ـ مسالك الممالك ـ ليدن مطبعة بريل ١٩٢٧ م .

ـ البكرى الأندلسى ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ج ٤ طبعة السقا ـ القاهرة ١٩٥١ م .

ـ المقدسى : أبو عبد الله محمد بن أحمد . أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن مطبعة بريل ١٩٠٦ م .

ـ كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية (ترجمة) بيروت سنة ١٩٤٩ م .

ـ ياقوت : بن عبد الله الرومى ـ معجم البلدان ـ بيروت ١٩٥٥م.

المراجع الأجنبية :

— Blanchard (R.) :
Asie Occidentale, Geogr. Universelle (1ière partie) T. VIII, Paris, 1929.

— Burot (P.) et Dresch (J.), :
La Mediterranée et le Moyen Orient, (T. II), Paris 1964.

— Holdich (Sir J. H.) :
India, London بدون تاريخ

— Lezine (A.) :
"Herat" Notes de Voyage, Bulletin d'Etudes Orientales, T. XVIII, Damas 1964.

— Spate (O.H.K.) :
India and Pakistan, London, 1960.

شكل (٤)

قلعة هرات ويبدو إلى اليسار جزء من سور هرات

شكل (٥) القوافل فى أحد الممرات الجبلية

طرق من كابل عبر هندكوش

شكل (٢)

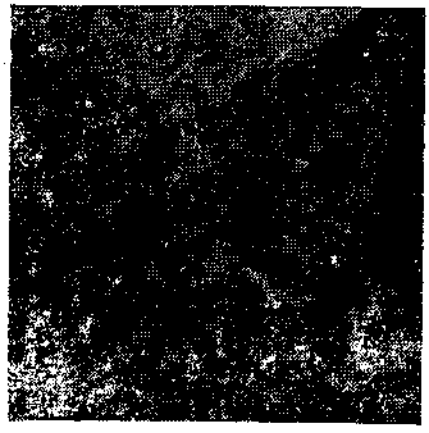

شكل (٦)
وادى شديد الارتفاع يكاد يقترب من قمم الجبال

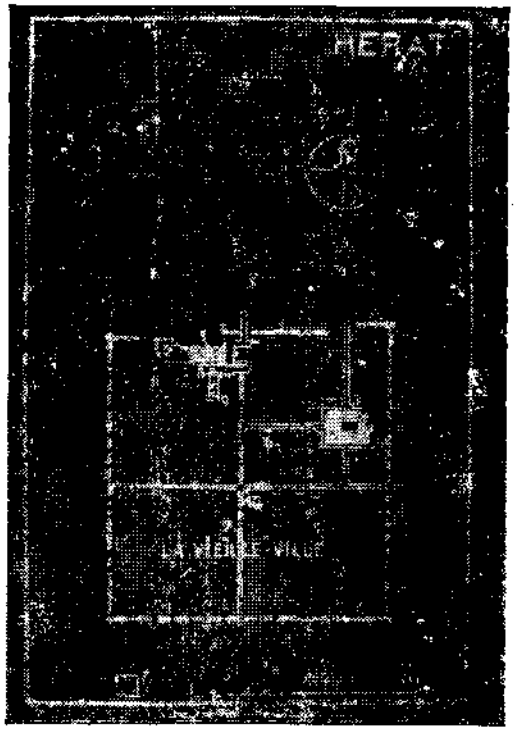

شكل (٧) شكل تخطيطى لمدينة هرات

شکل (۸) وادی بامیان

شكل(٩) أحد سكان المناطق الجبلية فى أفغانستان